الأصول العربية

لفلسفة رايموندو لوليو

● كتب المستشرق الاسبانى الكبير ، العلامة خوليان ريبيرا هذه الدراسة لتنشر في الكتاب الذى صدر تكريما للعالم الاسبانى مينيندیث اى بلايو ، ج ٢ ص ١٩١ — ٢١٦ ، وصدر في مدريد عام ١٨٩٩ . واعيد نشرها في كتابه « نبذ ومقالات » ج ١ ص ١٥١ — ١٧٩ ، وصدر في مدريد عام ١٩٢٨ .

من بين أصعب المشكلات حلا فى تاريخ الفلسفة الإسبانية، الأسلوب الغامض للفيلسوف رايموندو لوليو ، وتقنيته الغريبة ، ومنهجه غير المألوف وتأكيداته النادرة ، وكل ذلك مضافاً إلى عادته فى ألا يذكر مصادر مذهبه ، كان سبباً فى أن أفكاره لا تفهم بوضوح كامل، وليس من السهل أن نحدد بدقة أصول طريقته .

ولد لوليو فى ميورقة ، بعد أن افتتحها خايمة، وسط أسرة عسكرية ، كان ابنا لفارس رافق الملك فى هذه الغزوة . ولا يمكن الظن بأن الجزيرة على أيامه هذه كانت تعرف دراسات مسيحية ذات تقاليد . أو مدارس حسنة التنظيم ، يمكن أن يتعلم المرء فيها الفلسفة، ولو أن مذهباً بالغ التعقيد كمذهب الفيلسوف ليس مألوفاً أن يظهر فجاءة، بطريقة عفوية . ولا يمكن أن يحدث هذا فى أى مكان من العالم . ومع ذلك ، وقبل أن يغشى هذا العالم المستنير مراكز المعرفة الإنسانية الكبرى، ظهر فى الأديرة ، وسط حياة رهبانية متقشفة ، وأذهل العالم يومها بمذهبه الجديد الرائع .

الذين يقتنعون فى سهولة ، والذين يرضون بأى تفسير ، يستطيعون أن يستريحوا . دون أن يواصلوا البحث العميق الجاد فى إصرار ، يقبلون يقيناً أن لوليو عصامى علم نفسه بلا أساتذه ولا قراءة كتب ، وأن كل شىء عرض له جاءه فيضاً . ولكن أى شخص عاقل ، متوسط الثقافة ، لا يمكن أن يرتضى

هذه التفسيرات ، وبخاصة بعد أن ظهر ببراهين واضحة جلية أن لوليو قال فى مرات كثيرة ماقاله فلاسفة آخرون أقدم منه ، مسلمون أووثنيون ، وما كان فى وسعهم أبداً أن يحظوا بنعمة الفيض .

والأخبار الغامضة التى لدينا عن أيام لوليو فى شبيبته ، لا تهتم بطريقة واضحة عن سير دراسته ، ولا كيف كانت الصلة ، أو تكوّنت الرابطة بين أفكاره . وكان علينا لكى نخرج من هذا الشك أن نلجأ إلى أسلوب آخر : أن نقارن بين أفكاره وأفكار الفلاسفة الذين سبقوه أو عاصروه . وبهذه الطريقة وحدها نستطيع أن نشير إلى ألوان من التوافق بينه وبين آخرين مشهورين جدا ، وقد رأينا بعض أفكار أرسطوطاليس ودون سكوت ، وتوماس الإكوينى ، وآخرين من فلاسفة العرب أمثال ابن سينا وغيره ، تلمع بين آرائه وأفكاره . ومع ذلك ثمة مجموعة كبرى من أشياء غامضة ، وقدر كبير من بقايا أفكاره ، يجعله يبدو كظاهرة رائعة ومتميزة .

أيمكن أن يحدث أنه سار على خطى نماذج جاهلة ، وأن حديثنا عن أصالته الرائعة ليس إلا جهلا منا بمصادر مذهبه ؟ . هل درسنا التيارات العربية بقدر كاف ، والتى يمكن أن تكون أثرت فى فلسفة هذا العالم المستنير ؟ .

إن تربية لوليو العربية لم تجىء من ترجمات لاتينية ردئية ، كالتى كان يستخدمها بعض « المدرسيين » على أيامه ، وإنما جاءته معاناة من قراءته النصوص العربية الأصيلة مباشرة .

إن الشهرة العالمية التى تمتع بها الفيلسوف الميورقى ، والمعرفة الواسعة التى كان عليها ، لا يمكن أن يبلغهما دون أن يستخدم أداتهما المناسبة ، وبطريقة ماهرة ، ومن الضرورى بمكان أن يعرف اللغة التى كُتبَت فيها هذه المواد ، ونحن نعرف عنه أنه لم يتعلم اللغة اللاتينية فى المدارس ، ويعترف صراحة بأنه لا يعرف قواعدها ، ويقول فى مقدمة كتابه أسماء الله المئة : « إن رايموند يرجو

الحبر الأب المقدس ، وللسادة الكرادلة ، أن يترجموه إلى اللغة اللاتينية، لأننى لا أستطيع ترجمته إليها، إذ أننى أجهل نحوها» . ولم يستطيع أن يقوم بدراسات فلسفية فى القطلونية (١) ، وكانت لغته الأم ، والتى يتحدث بها ، ويكتب فيها ، لأن مثل هذه الدراسات لم تكن يومها تكتب فى اللغات العامية، وعلى النقيض من ذلك ، كان ممتازاً فى اللغة العربية .

فى ضوء هذا السلوك الخاص علينا أن نبحث عن أصول طريقته ، لأن دراساته العربية لم تكن سطحية كما قلنا ، ولا عادية فى تناوله لها .

وإذا كان من الضرورى أن نبرهن على الواقع ، فالقليل من الأخبار نلتقطها ممن كتبوا سيرته كاف ، وهى تقول إنه تعلم اللغة العربية من عبد مسلم ، متمكن الثقافة على نحو يتيح له أن يدير حواراً متصلا مع لوليو ، وتذكر واقعاً أنه ألف كتابين باللغة العربية . أولهما : « التأليف والتوحيد Teliph & el Atehuid ، وكتاباً آخر يذكره ويلر Weyler ، وهو رسالته « التأمل » ، وأنه جادل فى بجاية بالجزائر فلاسفة متمكنين ، وناقش فى عنابة خمسين عالماً عربياً. وكل ذلك لا يمكن أن يقوم به، وهو لا يعرف غير لغته الأم، ودون أن يعايش المصطلحات العلمية فى اللغة العربية . وطبقاً لإشاراته فى كتابه Desconort كان فى معهد ميرامار يعلم صغار الرهبان اللغة العربية ، ولم يكن يقف بهم عند هذا الحد ، وإنما تجاوزها إلى معارف المسلمين ومناهجهم ، لكى يستطيعوا تحويل المسلمين عن دينهم بالحجة المقنعة ، لأن الإعداد العادى للمبشرين لم يكن فعالا فيما يرى .

وفى كتابه « بلانكيرنا Blanquerna يقول : إن الإيمان

---

(١) اللغة القطلونية احدى اللهجات الرومانثية التى تفرعت عن اللغة اللاتينية في العصور الوسطى ، ويتكلمها شمال شرقى أسبانيا ، وجزر البليار ، ومانزال هذه ومقاطعة قطلونية ، وعاصمتها برشلونة ، تتحدث بها حتى اليوم ، واللغة القومية فيها ، وهى الى الفرنسية أقرب منها الى الاسبانية ، بناء واصواتا .

ذهب إلى بلاد المسلمين ، وقد وجدت هناك رجالا كثيرين علماء فى الفلسفة ، وهؤلاء لا يأخذون بكل مافى الإسلام على ظاهره ، ولا يسلمون بسلطة الأولياء ، ولا يمكن — فيما يرون — أن تكون للمرء عقيدة حتة لا تعتمد على العقل ، وغير ذلك كثير . يقول : « والآن جاء الوقت الذى يقدر فيه الناس الأسباب المؤدية إلى النتائج ، ولهذا السبب نفسه نشأت العلوم الفلسفية والكلامية » .

●

وكان لوليو يضمر حناناً ودوداً للمسلمين ، جاءه دون أدنى ريب من دراسة الكتب العربية ، ولا يمكن رده إلى الإحسان الرعوى الذى ينطوى عليه صدره ، وكان دائماً سخياً ونبيلا ومسيحياً ، لأنه مزج فيه بين إعجابه الذاتى وبين علم المسلمين وفضائلهم ، واقرأ الفقرة التالية من كتابه « الكتاب السعيد فى عجائب الدنيا » وفيها يؤكد أن المسلمين أكثر عقلا ، وأوسع فطنة من المسيحيين : « والسبب الذى يجعل المسيحى يهرم ويموت قبل المسلم ، أن المسلمين يطعمون الأشياء الحلوة ، دافئة وندية ، أكثر من المسيحيين . والمسلمون يشربون الماء ، وهو يزيد من الرطوبة ، ولهذا يحتفظون بداخلهم رطباً على الدوام ، على حين يشرب المسيحيون الخمر ، وهى ساخنة وجافة ، فتزيد حرارتهم ، وتمتص مابداخلهم من رطوبة » . ويتساءل فى كتابه « السعيد فى عجائب الدنيا » : « لماذا يصبح المسلمون أكثر فطنة بالطبيعة كلما تقدمت بهم السن ، والمسيحيون على النقيض ؟ . لأن الوحدة تترك الخمر واللحم بخاراً ، ويتناولهما المسيحيون أكثر من المسلمين ، وهما يؤديان إلى تدمير الجسد ، ويضغطان على الفهم . أما الماء وهو بارد رطب فيلطف البخار ، ومع الرطوبة ترتفع رطوبة الدماغ ، ومع البرودة تهبط ، وبما أن الرطوبة خفيفة ، والبرودة فاحشة ، طبيعةً ، فإن الدماغ البارد والرطب يمكن أن يكون أشد توافقاً لانسجام أبخرته ، مما لو كانت متفاوته . وللاحتفاظ بشبابهم عرف المسلمون كيف يرتدون

---

(١) Fé Lix de Les maravelles dei mon Agulô

الكتاب السعيد في عجائب الدنيا ، ج ١ ، ص ٩٤ ، طبعة

الملابس الفضفاضة ، لأن الهواء مع الملابس الواسعة يستطيع أن يتعاون مع ظاهر البدن . ومن ثم يمكن للهواء الساخن أن يمتص البخار من الجسم عندما يريد أن يزيد من قوه الهضم . على حين أن الهواء البارد يقبض المسام ، فتطيل الحرارة الطبيعية داخل الجسم ، وتجعل قدرة الهضم أقل ، ولهذا يحتفظ الرجل الشاب بنضرة الفتوة على نحو أفضل ، وتبدو الشيخوخة واضحة فى محيا الرجل العجوز » .

ولا يتوقف إعجاب لوليو بالمسلمين عند الجانب العلمانى ، إنما يمتد إلى التراث الدينى ، ولا يعرض لذلك كمثل يثير به روح المنافسة عند المسيحين ، وإنما يتجاوز الإعجاب فيحاول إدخاله فى المسيحية ، كتدريب عملى على التقوى .

وهكذا دعا المسيحين أن يضعوا اسم المسيح على رأس رسائلهم ، كما يضع المسلمون البسملة والصلاة على النبى[1] ، واستنكر الفوضى التى تلاحظ فى الكنائس المسيحية حيث يختلط الرجال بالنساء ، ودعا فى كتابه بلانكيرنا Blanquerna بألا يسمح مستقبلا بأن يختلط الرجال بالنساء فى الكنائس ، وكان المثل الذى يضربه المسلمون واليهود فى الصلاة موضع تقدير منه ، « وإذا كان هؤلاء وأولئك غير مسيحيين ، وعلى خطأ ، وندين طريقتهم ، يلاحظون هذا النظام البديع ويحرصون عليه ، فما أعظم السبب الذى يوجب علينا كمسيحيين أن نأخذ به ، وأن نحافظ عليه » .

ويقول أيضاً فى كتابه بلانكيرنا ، واتخذ من اسم البابا رمزاً لشخصه :

« سأل البابا كاردينالا : هل رأى أى مسيحى يبكى خشوعاً فى قداسه ؟ ، فأجابه : إنه لم ير أحداً يبكى ، ولكنه رأى كثيرين ينامون . وقال البابا للكرادلة : ياللروعة ! كيف يقل خشوع المسيحيين فى قداسهم ، على حين أن المسلمين ، وهم على خطأ ، يبكون فى صلاتهم خشوعاً ، ويقيمونها فى ورع وتقوى . وفى الحال رد كاتبه فى اللغة العربية ،

---

(١) الصديق والمحبوب ، البيت رقم ١٥٦

وكان عند الباب ، فقال : إن المسلمين يدعون إلى التقوى ، ويبشرون بأمجاد الجنة ، ويخوّفون من عذاب النار ، ومن ثم يغشاهم الخشوع فى صلواتهم ، ويبكون من التقوى التى تفيض بها جوانحهم ... » . وهذا أصدر الخبر الأعظم أوامره بأن يتجول بعض الرجال الأتقياء ، ومن تتسم حياتهم بالصلاح والتقوى والخشوع ، كل يوم فى شوارع المدينة ، يعظون الناس ، يخوفونهم عذاب جهنم ، ويذكرونهم بالأمجاد السماوية ، لتكون حاضرة أمامهم فى كل الأوقات(١) .

وفى مقدمة كتابه أسماء الله المئة يعبر بوضوح عن رغبته فى أن تمارس الكنائس يومياً إنشاد أسماء الله المئة ، موقعة وذات نغم ، على نحو مايقرأ المسلمون القرآن جماعة فى المساجد . ومن جانب آخر فمن المعروف أن أسماء الله المئة ، من بين الأوراد التى يرددها المسلمون .

●

لايظن أحد أننا نتصيد النصوص التى تخدم فكرتنا ، ونستطيع أن نبرهن بها على مانقول فحسب ، وإنما لجأنا إلى كل المؤلفات التى استطعنا أن نحصل عليها ، وهى : بلانكيرنا ، والكتاب السعيد فى عجائب الدنيا ، والأعمال الشعرية ، وغيرها ، ولم نلتق ولامرة واحدة مع نصوص تفوح منها رائحة احتقار المسلمين ، إنه يتحدث عنهم دائماً فى ود حنون ، ولكنه لم يتحدث أبداً بمثل هذه الروح عن محمد الرسول ، كان يراه مسئولا عن أرواح كثيرة بائسة ولكن ذلك فيما يرى قضية شائكة جداً وخطيرة للغاية ، أن يتحدث بسوء عن الرسول وهو يحاول أن يصد المسلمين عن دينهم ، وجعل من ذلك هدفه الذى لا يغفل عنه طوال حياته .

وقد التقى لوليو مع مسلمين كثيرين ، ليسوا من العامة ، ولا من شخصيات الطبقة الدنيا ، أو أصحاب العادات السيئة ، وهم موجودون فى كل الشعوب ، وإنما كانوا من الصفوة ، رجالا فضلاء ، أتقياء من زهاد المسلمين ، وكان

---

(١) بلا نكيرنا ، ج ٢ ، ص ١٣٤ ، طبعة مجلة بدريد

يطمح فى أن يحول هؤلاء عن دينهم ، ولم تقع فى خاطره أبداً الفكرة المكرورة ، والبريئة فى الوقت نفسه ، والتى تفسر أصالة العقيدة الإسلامية بالبهجة المعنوية فى قانونهم ، وغيبة الكبت فى شهواتهم ، وغيرها .

وكان ذلك واضحاً كل الوضوح ، وإلا فكيف نوفق بين موقفه هذا ، والاعتراف الصريح بأن أجمل وأفضل مؤلفاته ، ، وتعتبر أروع ماكتب فى التصوف الإسبانى ، وأصلب أساس يقوم عليه ، كتبها تقليداً لما قام به الصوفية المسلمون ؟ ولقد ردد هو نفسه ذلك ، أكثر من مرة فى كتابه بلانكيرنا يقول : « ورسول آخر من الكاديتال ، عبر إلى جانب من بلاد البربر (شمال أفريقيا) ، ورأى هناك كثيرين من الوعاظ والفقهاء يعلمون المسلمين القرآن ، ويحدثونهم عن مباهج الجنة ، ويدعونهم بالحكمة والموعظة ، وجميع الذين يستمعون إليهم تكاد أعينهم تفيض بالدمع خشوعاً ، وقد أعجب الرسول الوافد كثيراً بالتقوى التى عليها هؤلاء الناس ، وما تنضح به كلماتهم من خشوع وكل مايدعون إليه خطأ كبير ، وعرف أن القدوة الجيدة التى هم عليها ، والحياة التقية المخلصة التى يعيشونها ، ونفاذ الدعوة ، وحضور الدمعة ، مردها أنهم فى وعظهم يشيرون إلى حياة كثيرة من الناس ماتوا تقاة ، ولهذا السبب نفسه كان هؤلاء الناس يبكون خاشعين .

ووجدته أيضاً ، فى كتابه « **الصديق والمحبوب** » يذكر أن الرجال الأتقياء ينشدون حباً فى الله ، وحباً فى الله أداروا ظهورهم لمباهج الدنيا ، ومضوا عبر العالم يعانون من الفقر ومن أشياء أخرى كثيرة (١) . وحينئذ فكر فى أن يذهب إلى دير بلانكيرنا ويرجوهم أن يؤلفوا كتاباً يدرس حياة الرهبنة ، ومنه يتعلم الرهبان الآخرون ، ومعه يعرفون كيف يتأملون ، وكيف يصبحون خاشعين ».

وفى بلانكيرنا عزم على أن يؤلف كتابه **الصديق والمحبوب** ، وكلمة صديق

---

(١) بلانكيرنا ، جـ ٢ ، ص ١٠٥ — ١٠٦

عنده تعنى أى مسيحى مؤمن وتقى ، والمحبوب الله إلهنا ، ثم يضيف : « وعلى حين كان يفكر فى هذا ، فى بلانكيرنا ، تذكر فى إحدى المناسبات أنه كان بابا ، وذكر له مسلم بأن رجال الدين عندهم موضع التقدير والاحترام من الجميع ، وأنهم يسمون الصوفية أو المرابطين ، وتعودوا أن يكون كلامهم مزيجاً من أمثلة تحض على الحب ومن الحكم القصيرة التى تؤثر فى الناس التقاة الخاشعين ، والذين يحتاجون إلى الشرح ، ومع الشرح يبلغ الفهم عندهم أعلى درجات التأمل ، وبارتفاعه تقوى الإرادة ، ويتضاعف الخشوع ، وبعد أن أخذ كل هذا فى الاعتبار قرر أن يؤلف كتابه طبقاً لهذا المنهج (١) .

نقلنا كل النصوص السابقة رغم طولها ، لأننا نعتقد أنها ذات أهمية بالغة وكلها فى مجموعها تؤكد الدقة والأمانة التى اتسم بها لوليو حين صرح بالمصادر التى ارتوى منها ، وهى حالة نادرة فى كتبه ، وكان هذا الاعتراف الخيط القائد الذى هدانا فى البحث عن نماذجه التى احتذاها .

وبعد أن درست بعض كتب التصوف الإسلامية ، أصبحت مقتنعاً بعمق بأن هذا الفيلسوف الميورقى الشهير ليس إلا صوفياً مسيحياً .

وإن مانجده عنده من ازدراء الهيئات الرهبانية ، والجماعات الدينية المنظمة ، واعتكافه وحيدا ناسكاً متأملا ليفرغ لخدمة « محبوبه » ، وتجواله فقيراً ، عارياً إلا من خرقة ، ينتقل من بلد إلى آخر ، يعظ الناس فى الشوارع والميادين أحياناً ، فى أسلوب خشن ، لايفرق بين الكبير والصغير ، وتفكيره فى أن يعزف بالبزق ليلا ، فإذا سمعه الناس أخذوا فى محاسبة نفوسهم ، متعرضاً لا تهامه بالحمق والجنون ، وتفرغه أحياناً للتبشير بالمسيحية فى الجبال والوديان ، يمضى على « باب الله » الذى يقيم أوده ، أو اعتكافه فى مغارة يستغرق فى تأملاته ، منفرداً

---

(١) ج ٢ ، ص ١٥٨ — ١٦٠

« بمحبوبه » ، بعيداً عن الوحدة التى يشعر بها وهو بين الناس وفى غمار المجتمع ، وكل ذلك كان يقوم به أعداد لا تحصى من المرابطين المسلمين على أيامه ، على امتداد شواطىء أفريقيا التى زارها .

وعقيدته الخاصة أن كل علم إشراق أو فيض من الله ، ويجىء دون وسيلة ثقافية ، وفيه يسبق الإيمان الفهم ، والحقيقة مبدأ مشترك بينهما ، ويصعد الفهم عبر سلم حيث الإيمان يسبقه ، وهذا يعتمد على تلك للتعمق فى الأسرار الإلهية ، والعلم هنا واحد والكل منسجم ، العالى والهابط ، الحسى والمعنوى ، وتضيق الخلافات الكبرى والتناقضات ، وكال هذا يقول به المرابطون المسلمون ويمارسونه منذ أعوام طويلة ، قبل أن يولد رايموندو لوليو .

وهذه التأكيدات الجريئة لها نكهة القول بألهية الكون أو « الطمأنينة » ، وفيها يؤكد أن « المحبوب والصديق » يصبحان فى لحظة الشطح وحدة فعلية فى جوهرهما ، مع نهج واضح فى الوقت نفسه ، وقناعة عميقة ، بصحة العقيدة وصفائها . وبراهينه « العقائدية الميتافزيقية » هذه ، يراها بعض المؤلفين خليطاً غامضاً مما هو صوفى وعامى ، وبين ماهو مقدس وعلمانى ، بين مايبدو حماقة وبين أرق الخواطر ، حجج لا يفهمها كثير من المسيحيين ، وتبدو فى نظر لوليو واضحة تماماً ، وتلك التقنية الغريبة جداً ، وغير المفهومة أبداً ، والتى قيل عنها إننا فقدنا معها مفتاح ذكائه ، على حين أن كل الطعوم الغامضة لطريقته ، تقنية وفكراً ومذهباً فى القول ، جاءته من الصوفية المسلمين المعاصرين له .

وثمة منهج تربوى خاص ، وكان تجديداً أدخله هذا العالم المستنير ، وطبقاً له كل شىء يعلّم شعراً ، حتى المنطق . وكل شىء ينشر نثراً يتم عن طريق التصوير ، بعيداً عن النظريات البحته ، والأفكار التجريدية ، وإنما يعرض مصوراً فى جداول ودوائر ومربعات ، وغيرها ، لكى يسلك سبيله

عن طريق العين إلى ذكاء الجماهير ، وهو منهج خاص تميز به الصوفيه المسلمون المعاصرون للوليو .

●

ولنبرهن على هذه الأراء ، ونظهر التشابه بين الأفكار والمواقف ، يمكن أن نمضى فى جمع الشواهد من حياة التجوال عند كثير من الصوفية الإسبان المسلمين الذين عبروا إلى شمال أفريقيا ، فى الفترة التى سبقت أيام لوليو مباشرة ، واشتهروا بذكائهم وتقواهم . **فابن سبعين المرسى** ، وكان مرابطاً وفيلسوفاً ، مضى يعظ فى الشوارع والميادين ، ويعلم الناس بالرموز والتمثيل ، ويستخدم فى أبحاثه عما وراء الطبيعة لغة حافلة بالأسرار والغموض وتخفى وراءها أفكاره الجرئية ، ولم تكن تسير فى الخط المحافظ دواماً . **وابن هود الزاهد** ، وهو من مرسية أيضاً ، وينتسب فى أسرة انحدر منها العديد من الشخصيات الهامة جداً . راح يطوف العالم ناسكاً ، يلبس طرطوره الشهير ، ويرتدى زيه الغريب ، ويتميز بلحيته البيضاء الوقورة ، متقشفاً ، مستسلماً لإماتة النفس والمكاشفات الصوفية ، متأملا دائماً ، وحزين أبداً ، ودامع العين باستمرار ، وأشعاره تودع على مئات الفراسخ أريج من يعتقد فى ألوهية الكون. أو الوادى آشى ، **الششترى** الشهير ، وقد أوتى الحكمة ، وجمهرة من الفقراء تتبعه ، زهاد فى ملابس رثة ، غائبين عن الوجود ، وهم مع أستاذهم ينشدهم موشحاته وأزجاله ، فى عفوية عذبة ، بالغة الروعة ، يتغنى فيها بأشواقه الصوفية ، **والحرلى** ، أو **أبو العباس**، وكلاهما من مرسية أيضاً ، **وابن الفارض** ، **والعفيف التلمسانى** ، **وأبو مدين** ، وآخرون غيرهم ، جماعات كاملة تتلاقى وتتكاثر شرقاً وغرباً ، تعيش الحياة نفسها ، وتمارس أفكاراً متشابهة .

ولكن بين هؤلاء جميعاً ، تميز شخص واحد بالمعرفة الواسعة ، وبالفلسفة العميقة ، إلى جانب أنه شاعر وصوفى ، وأستاذ عالمى ، وأعنى به **محيى الدين ابن عربى** ، وهو من مرسية أيضاً ، وحياته وآراؤه ومنهجه صورة مسبقة لحياة وآراء ومنهج الفيلسوف الميورقى .

فلنحاول أن نستغل المعلومات الوفيرة ، المتناثرة فى مؤلفات ابن عربى الضخمة ، والمتصلة بحياته ، فى الفتوحات المكية ، ومحاضرات الأبرار ، وديوانه ، وكلها طبعت فى القاهرة ، والأخبار المتصلة به ، فى كتب من ترجموا له من المؤلفين أمثال : المقرى التلمسانى فى نفح الطيب ، وابن شاكر الكتبى فى فوات الوفيات ، وابن القاضى فى درة الحجال وغيرهم ، لكى نبنى سيرة هذا الصوفى الإسبانى المسلم ، ونرسم صورة موجزة لحياته فى ضوء ماقدموه لنا .

فيما يقول ابن عربى عن نفسه ، ولد فى مرسية عام ٦٥٠ هـ = ١١٦٥ م ، فى بيت حسب وتقى ، وكانت أسرته ميسورة الحال ، وجرت بين أسلافه أحداث ذات مواقف سريعة ومتقلبة ، انتهت بهم إلى حياة التقشف والعزلة والانزواء ، بعد حياة دنيوية عريضة ومرسلة ، وأحد أخواله ، يحيى بن يوجان ، ملك تلمسان ، استجاب يوماً لواعظ مرابطى خشن ، التقى به يوماً يمتطى صهوة جواده ، ويتجول فى ضواحى المدينة صحبة رجال بلاطه ، ترجل من على الحصان ، ونزع ملابسه الملكية ، وبدأ يبكى ، ثم ذهب بعد ذلك يخدم الله رفقة هذا الصوفى ، وفى الرباط كان يعيش على جمع الحطب من الغابات ، ويذهب به ليبيعه فى تلمسان ، فيجد من الناس التقدير والاحترام ، ويلتمسون منه البركة والدعاء .

وشىء شبيه بهذا دفع صاحبنا ابن عربى إلى تغيير أفكاره وحياته ، وظل حتى فى شيخوخته يذكر والأسى يملأ قلبه ، والندم يغشى جوانحه ، تلك الأيام البهجة من شبابه ، مرّت دون أن يذكر اسم الله فيها ، وإنما قضاها فى الصيد والقنص عبر وديان قرمونة ، وبالمة دل ريو ، قريباً من إشبيلية ، على خيل والده ، رفقة بوازيه . وقد أمضى الأعوام الثمانية الأولى من طفولته فى مرسية ، ثم انتقل والده إلى إشبيلية ، ولا يذكر من أيامه تلك إلا بعض الكلمات تخلفت فى سمعه من خطبة الجمعة التى كان يلقيها إمام المسجد الجامع فى تلك المدينة .

وعاش فترة شبابه فى إشبيلية ، وكحل الشبان على أيامه ، درس القراءات والأدب والتاريخ وغيرها . وحرص أحد أعمامه على أن يدرس له الشعر ، وفى رحلة قام بها إلى قرطبة نظم بعض الأبيات بمناسبة زيارته لمدينة الزهراء ، وكانت يومئذ أنقاضاً ، وأصبحت مأوى للوحوش والحيات ، وعندما بلغ أشده عين كاتباً فى حكومة إشبيلية .

ولا نعرف ماإذا كانت أمه التقية ، أو زوجه مريم ، أو كليهما وأسباب أخرى ، نمت فى أعماقه هذا الاتجاه الجديد ، ولكن من المؤكد أن أبا العباس المغربى ، وهو صوفى من إشبيلية ، قدم من الغرب Algarves فى جنوب البرتغال ، كان أستاذه الأول فى العلوم الإلهية ، وتتلمذ معه على هذا العالم الجليل رفاق آخرون من إشبيلية شاركوه هذا الاتجاه ، وإجلالا له ، وتقديراً لذكراه ، خصه فيما بعد بمؤلف تاريخى ، أورد فيه أخبار هذه المدرسة .

ويذكر ابن عربى بكثرة ، فى كتبه التى وصلتنا ونعرفها ، أنه قرأ ودرس بعض مؤلفات الفيلسوف الإسبانى **ابن حزم** ، وأنه استخدم « **كتاب الأسرار** » وكان متداولا بين المدارس والفرق الإسلامية ، على نحو ما كان عليه كتاب أرسطو ، إلى جانب رسائل أخرى لم تكن تنسجم تماماً مع الاتجاه السنى الرسمى . ويذكر أيضاً بعضاً من الحوار أو الجدل الذى دار بينه وبين بعض المعتزلة والفلاسفة ، وخرج منها دائماً منتصراً بالطبع .

ومع ذلك ، كان اهتمامه الرئيسى فى ذلك الوقت أن يتردد على الزهاد والمرابطين ، ومن الذكريات التى كانت تقع فى خاطره دائماً ، ويرددها فى حنان ودود ، حياة وعادات نُونَة **فاطمة الإشبيلية** الصوفية ، وكانت امرأة تقية صالحة ، والهة فى حب الله ، وارتبط معها بأواصر الأخوة ، ولزمها سنين خادماً ومريدا ، وشيّد لها بنفسه خصا من الأعواد ، اعتكفت فيه زاهدة ومسكينة ، وكانت العلاقة بينهما مثالا عالياً للشرف والحب الصوفى ، ويذهب لزيارتها

صحبة والدته ، وكان وجه هذه يحمر خجلا واستحياء عندما ترى وجنى تلك المرأة متوردتين وبشرتها نضرة ، تبدو كفتاة فى الرابعة عشرة من عمرها ، وبقى أن نعرف أن هذه المرأة على الرغم من فائض النعمة التى تبدو فيها ، وميعة الشباب التى تحتفظ بها ، بلغت الخامسةوالتسعين من عمرها ، عبرتها صحيحة ، وأمضتها واعية .

وفضلا عن هذه العبدة احتفظ فى ذاكرته بأخرى تسمى مرجانة ، وكان يدعوها « شمس خادمات الله وأم الفقراء » ، وثالثة من إشبيلية تدعى أم زهرة ، وبجمهرة لا تحصى من الزاهدات والصوفيات والعابدات ، اللائى يملأن مدنا أخرى . ويذكر على نحو أكثر إصراراً أستاذاً واحداً تعلمن عليه جميعاً ، وهو عبد الله المورونى ، ودرس عليه علم التوحيد .

وعندما بلغ سن الرشد ، وتسلح بقدر كاف من المعارف ، بدأ رحلاته ، فذهب إلى تونس ، ويذكر أنه نظم قصيدة فى جامع الزيتونة ، وفيما بعد ، عندما عاد إلى إشبيلية ، فوجىء بأنهم يرددونها فى أسواق إشبيلية منسوبة له ، دون أن يكتبها أو ينشدها أحداً . وذهب إلى فاس ، وفى مسجدها الجامع تلقى الفيض الإلهى ، وفى جنة ابن حيون ، مهبط لقاء مريديه ، أثار العجب بينهم بما أظهره فى أحاديثه من علم ، وعندما مر بمدينة سبتة درس فى بيت زاهد كان تلميذاً للغزالى ، وصاحب مذهب وأفكار كان ابن عربى يحب أن ينظمها شعراً .

وقبل أن يتنبأ بالمهمة التى خصته بها السماء فى المشرق ، تجول ثانية ، فى تلك المدن وفى مدن أخرى ، فقد رؤى وهو فى التاسعة والعشرين من عمره فى مدينة طريف ، وفى تلمسان حيث زار قبر عمهالموقر يحيى ، وأشرنا إليه من قبل ، وفى الثلاثين من عمره كان فى تونس ، وبعدها بعام فى فاس . وفى الثانية والثلاثين كان فى إشبيلية ، وبعد قليل عاد إلى فاس ثانية ، وفى الخامسة

والثلاثين شوهد فى غرناطة وألمرية حيث ألف كتاباً رمزياً وموسيقياً ،وفى السابعة والثلاثين من عمره كان فى مدينة مراكش .

وفى هذه المدينة الأخيرة تلقى دعوة من السماء بأن يذهب إلى المشرق ، حوّم فوقه ، فى غرفته أو صومعته التى كان يلزمها ، طائر رائع الجمال ، أعلمه بالخبر . واستجاب لهذه الدعوة الكبرى ، ورحل إلى المشرق ،ومر بفاس وبجاية ، وفى هذه الأخيرة رأى حلماً عجبا : أنه تزوج زواجاً صوفياً بكل نجوم السماء والحروف والبدور ، وعرض رؤياه هذه على من قصها على رجل عارف بالرؤيا ، فاستعظمها وقال : « هذا هو البحر لا يدرك قعره ، صاحب هذه الرؤيا يفتح الله له من العلوم العلوية ، وعلوم الأسرار ، وخواص الكواكب »، وفى تونس ، المدينة التى شهدت ظواهر تقواه الخاشعة ، ذهب ليزور أخوته فى كهف يقع وسط مقابر الجانب الشرقى ، وزار القاهرة ، ولا يحمل عنها ذكريات طيبة ، فقد ثارت فى وجه أفكاره ، وكان على شفا أن يقتل فيها متهماً بالزندقة ، ومنها ذهب إلى مكة .

وفى عاصمة الإسلام تلقى النور الإلهى غامراً ، وكان ذلك دافعاً له فيما بعد ، وبخاصة وهو يطوف بالكعبة ، إلى تأليف كتابه « الفتوحات المكية »، وهو أروع كتبه ، وكان قد بلغ من العمر حينئذ تسعةوثلاثين عاماً . وفى الواحد والأربعين من عمره ظهر فى بغداد ، وفى الموصل ، وبعدها بعام ظهر فيما حول أرمينية ، وذهب إلى ميافارقين ، وديار بكر ، وقونية ، وسيواس ، وغيرها . ومنها عاد إلى مصر ، والقدس ، وبغداد ، وبعدها بقليل رؤى فى ملطية فى آسيا الصغرى ، وهى قرية كانت تحت حكم الإغريق البيزنطيين ، وفيها تزوج المرأة التى رزق منها بولديه، وهما شاعران مشهوران . وفى الخمسين من عمره وجد فى دمشق ، وفى حمص أجرى عليك الملك راتباً يبلغ مائة بيزته(١) يومياً ، وكان ابن عربى يوزعها بين الفقراء . وفى الثامنة والخمسين

(١) البيزته تعادل الآن قرشا مصريا واحدا .

كان يقيم فى حلب ، فى بيت أهداه له حاكم المدينة ، وتصدق به صاحبنا ابن عربى على أحد المتسولين فى الشارع ، وأخيراً عاد إلى دمشق ، وله من العمر ثلاثة وسبعون عاماً .

هناك ، بعد أن كتب أهم مؤلفاته ، وهو الفتوحات المكية ، وسط فيض وكشف لا يتوقف ، تلقى خلاله علوم ما وراء الطبيعة إلهاماً ، فى أشكال هندسية وتشخيصات جبرية ، ومات فى الثمانين من عمره ، محترماً بفضائله ، موقراً لمواهبه . وحين كان يأخذ طريقه إلى الآخرة ، بدأ الطفل رايموندو لوليو يتهته بين ذراعى الحاضنة فى مدينة بالمة ، من جزيرة ميورقة ، وفيما بعد فيلسوف يتجول رجلا ، مبشراً بالمسيحية ، فى نفس الأمكنة التى مر بها ذلك المرابط الإسبانى المسلم قبله بأربعين أو ستين عاماً .

كان ابن عربى فى حركته الدائبة يحمل حياة سارحة ، يبدو معرضاً عن ضجيج الدنيا ، ويتخفى وراء مسكنته واعتكافه ، ورغم ذلك لم يكن مغموراً ولا مجهولا فى أى مكان ذهب إليه ، وتعود أن يقول عن نفسه إنه مجنون ، ورغم ذلك يربى مريديه ، ويحاضر إخوانه ، ويروض تلاميذه . وكان هؤلاء الفقراء الناسكون يمثلون حينئذ ، كما هو الحال فى عصور تلت ، قوة هائلة فى العالم الإسلامى ، يثيرون الشعوب ، ويدفعون الملوك ، كى يقاوموا المسيحيين ، ويكتبون لهم كى لا يسمحوا لهؤلاء الكفار أن يقيموا كنائسهم ، أو يدقوا نواقيسهم أو يرفعوا أصواتهم وهم يتظاهرون عبر شوارع المدينة فى مواكبهم الدينية ، وكان ابن عربى فى المشرق خلال الحروب الصليبية ، فأخذ يستنهض همم المسلمين كى لا يسمحوا للنصارى أن يختلطوا بهم ، وألا يزور أولئك هؤلاء ، ويكتب إلى المسلمين الذين يقيمون فى بلاد الروم يحثهم أن يحافظوا على دينهم ، وألا يدخلوا فى جدل مع المبشرين المسيحيين ، وهو شىء يعافه ، وإن مدح أحياناً الحوار مع بعض المسيحيين ، لأن هذا مما تقتضيه مثالية الفضائل الإسلامية ، وسمو عقيدته الدينية وصفائها ، وهى — فيما يرى — أكثر إقناعاً من الأديان

الأخرى ، لأنها تؤمن بكل ما هو صالح فى الإنجيل وصحف موسى .

وفى أواخر أيامه رأى الملوك تجله ، والشعوب توقره ، وأدرك التأثير الرائع الذى أحدثته أفكاره العميقة ، ونظرياته العلمية ، وأصبح الناس يحتفظون بكتبه ويقرأونها عبر كل البلاد الإسلامية . ومنذ قرنين فحسب ، ذهبت جماعة من علماء المغرب إلى سفح جبل قاسيون ، خاشعين راغبين ، لكى يصلوا فى ضريحه ، ولا يزال هذا الصوفى الأندلسى الشهير موضع الإجلال والتقدير حتى يومنا هذا .

●

إن التشابه المثير فى حياة كلا الصوفيين الإسبانيين ، المسلم والمسيحى ، يعود إلى خصوبتهما الفكرية. لقد كتب ابن عربى ، ومثله فى ذلك لوليو ، أكثر من أربع مئة مؤلف ، أو على الأقل هذا ما اعترف به نفسه فى رسالة كتبها لابن السلطان الكامل .

وهذا التشابه فى السلوك يمكن أن يكون صدفة كله ، ولكن ما ليس سهلا تفسيره عن طريق الصدفة البحتة ، أو الاتفاق العارض ، هو التشابه فى نظامهما ومبادئهما ، ومنهجهما ، وطريقة عرضهما لما يدعوان إليه ، وثمة موقفان ، أو ثلاثة ، بخاصة لهما طابع شخصى ، ويشيران إلى العلاقة المباشرة الودود بين كليهما .

كتب ابن عربى مؤلفاته يبغى بها تربية المرابطين والعاكفين ، وإثارة الحمية فى نفوسهم حتى يصبح اسم الله موضع الإجلال فى الأرض ، وليعملوا على بناء البشر وتهذيب أخلاقهم ، وأن يرتفعوا بفهمهم حتى يبلغوا الحقائق الإلهية. وإذا كان قد اهتم بالعلوم التى تستهدف أشياء دنيوية ، فلكى يعرف « المحبوب » على نحو أفضل ، فغاية العلم معرفة جوهر الحب الإلهى .

وابن عربى ، مثل لوليو ، يؤكد أن العلم واحد ، ويبحث عن الواحد ، والأشياء الموجودة ليست إلا كلمات الله ، الذى يرى صورته نفسها فى

المخلوقات ، كما أن المرء يرى صورته نفسها عندما يقف أمام المرآة .

ويرى ، ومثله فى ذلك لوليو ، أننا يمكن أن نبلغ العلم عن طريق الإيمان ، وعن طريق الفهم ، ولكن قوة الروح أقوى من قوة العقل الطبيعية ، لأن الإيمان فوق الفهم والعقل ، ومصدر العلم يجىء فيضاً لا تحصيلا ، والعقل يحتاج دائماً إلى عون ما فى براهينه . وهذه لا تكون علماً حتى ولو استندت على الأسباب الضرورية . أما الإيمان فضرورة بذاته ، ومن ثم يصلح أن يكون للعقل فى البحث عن الحقيقة ، وبالإرادة نستطيع أن نبلغ علماً أسمى من علم الفلاسفة ، وما يعجز العقل الإنسانى عن معرفته بطريق الفكر النظرى يكشفه الله لعباده إشراقاً ، لأن كثيرا من الأشياء تقع فى الجانب الآخر من جبل المعرفة الإنسانية . والله يهب الحقائق العليا لأصحاب الإرادة ، أما القياس المنطقى فلا يكفى لما وراء الطبيعة أو العلم الإلهى .

وقد تلقى ابن عربى ، فيما يقول ، كل العلوم عن طريق النور الإلهى وحده ، ونفس الشىء يصرح به لوليو ، وعندما كان ابن عربى فى إشبيلية تلقى المعرفة بالعلوم الطبيعية والفلكية ، بلا كتب ولا أساتذة ، وعرف الكيمياء ، كما يصرح ، عن طريق الإلهام علماً موهوباً . ولهذا ليس من عادته أن يشير فى كتبه كثيراً ، كما يفعل مؤلفون آخرون ، إلى العلماء أو المؤلفين . يقول ومثله فعل لوليو من بعد : « لسنا نحن الذين يشيرون إلى كلمات هؤلاء ، أو أمثال أولئك ، وإنما نقدم فى هذا الكتاب (أى الفتوحات المكية) ، وفى كل كتبنا ، ما منحنا الفيض الإلهى ، وما أمر لنا به الله » .

وأسلوبه متناسق مثل لوليو ، وبين العالم العلوى والعالم السفلى تطابق كامل فيما يرى . وأشكال الأفلاك العليا مثل الأشكال السفلى الأساسية ، ويوجد تناسق كامل بين كل الأنظمة ، ماهو متصل بعالم الكائنات ، وما هو منطقى أو أخلاقى . وهكذا فإن **الكائن الصافى** ، **والكائن غير الصافى** ، وما **ليس**

كائنا ، ويمكن أن يصبح كائناً ، أى الممكن ، كلها تتلاقى فى نظام آخر من التقدير مع الله ، والعدم ، والعالم ، واليقين ، والإنكار ، والشك ، والنور ، والضباب ، والشفق ، والسماء ، وجهنم ، والبرزخ (١) . وتناسق نظامه السابق يبلغ النهاية من الكمال ثابتاً وجسوراً فى وحدة الوجود ، ويحاول فى جرأة عظيمة ومنطقية أن يستدل عليها من عقائد الإسلام الأساسية ، وأن يستخرج حتى الحروف نفسها من النصوص القرآنية .

والشكل الذى استخدمه ابن عربى لكى يعرض أفكاره ، وما يمكن أن نطلق عليه منهجه التعليمى ، له مشابهات لا شك فيها عند لوليو .

لقد نظم ابن عربى المواد المختلفة شعراً ، مهما كان الموضوع جافاً ، وهذه الأشعار يمكن أن تتسم بالجفاف ، نعم ، إيقاعها منضبط ، وموسيقاها واضحة ، ولكن ما فيها من الشعر قليل ، وكل ما هنالك أنه يستخدم نغم القافية وسيلة يعاون بها القارىء على أن يحفظ من الذاكرة ما يحاول أن يعرض عليه . إنها أشعار ميتافيزيقية صعبة الفهم ، حافلة بالمعانى ، ولكنه يكتبها فى سهولة منقطعة النظير ، ويبلغ به الأمر أن يعتقد ، حتى فى هذه ، أنها جاءته إلهاماً ، لأنه ينظمها فى الحلم ، ويتذكرها يقظاً ، وأحياناً يلاحظ عندما يستيقظ أنها تخرج من فمه آلياً ، دون أى جهد ثقافى ، كما لو كان ثمة شىء فى داخله يمليها عليه . ونظمها فى كل الأنواع : شعراً وموشحة وزجلا ، وفى كل البحور ، واستخدم فى قوافيها جميع الحروف . ونحس فى بعض قصائده الصوفية لوناً شعرياً واضحاً ومتميزاً ، ويتوجه فيها إلى الله محبوبه تحت رموز مختلفة ، وسوف نعرض لهذه الأشعار فيما بعد ، على نحو خاص .

---

(١) أنظر : ميجيل أسين بلاثيوس ، محيى الدين بن عربى ، فى كتاب « تكريم مينينديث اى بلايو ، ج ٢ ، ص ٢١٧ — ٢٥٦ ، حيث يشرح بعض هذه المصطلحات » .

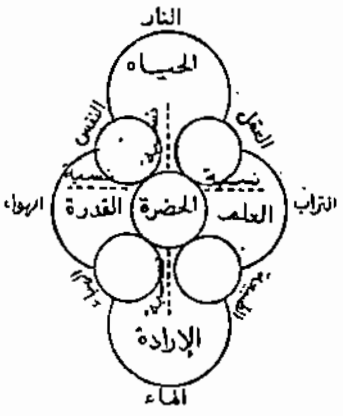

(شكل رقم ١)

ويلعب الجمّل السحرى دوراً عظيما عند ابن وعربى ، وتعود أن يخلطها فى كل أفكاره تقريباً ، لذا يشرح أحياناً أشدها غموضاً وميتا فيزيقية. ويؤمن بالفضائل الخاصة للحروف والأرقام ، ويستخدمها فى مربعات كوسيلة تربوية .

ويبدو لابن عربى ، ومثله لوليو ، أن كل شىء سهل الفهم عن طريق الرموز ، وتجسيمه عن طريق الرسم ، ويعرض العلم فى أشكال رياضية ، ويشرحها مستخدما المثلثات والمربعات ، وقد تداخلت فى بعضها البعض ، والدوائر ومراكزها ، والمربعات داخلها ، وغيرها . وبعض هذه الأشكال قريب الشبه جداً بما عند لوليو ، وأحيانا تجىء فى صورة دقيقة منها تماماً ، ومعها ندرك العلاقة الوطيدة بينهما ، كما لو أن أحدهما نسخ صورته من الآخر (١) .

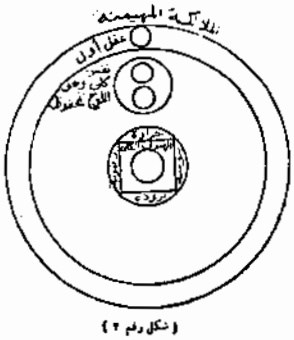
(شكل رقم ٢)

وتعرض لابن عربى مثل لوليو حقائق ماوراء الطبيعة ، وأخرى إلهية ، فى أشكال محسوسة ، ويرى الله أحياناً فى شكل نور بلا شعاع ، وفيه تذوب روحه ، على حين توجد فى هذا ، فى الوقت نفسه ، كل الأشياء بجواهرها التى تتكون منها ، وفى مرات أخرى كانت تعرض له ، كما لو كانت مركز دائرة ، يخرج منه ماهو ممكن فى شكل شعاع ، وهناك بعيداً من المحيط ، يوجد المستحيل والعدم الخالص وغيرها . وهذه الأحلام المدهشة التى يراها فى إلهامه ، كانت أشياء محسوسة ، وليست عقلية ، وفى شكل حقيقى وليست مثالا . فلا غرابة إذن أن يضع فى عدد من

---

(١) أنظر أسين بلاثيوس فى المصدر السابق : تصوير وتفسير دائرة الممكن ، ودوائر الأجناس والأنواع .

مؤته بعض الرلفساوم ، يصور بها جانباً من أحلامه على نحو أكثر سهولة للناس من أصحاب الخيال (١) .

وتقنية ابن عربى مثل تقنية لوليو ، صعبة وغامضة على الغرباء ، وإن شئت طبقاً لما يصرح به هو نفسه ، إن علمه لا يمكن أن يخضع للتقنية ، ولا تكفى اللغة العادية لعرضه . وفيما يتصل بالأشياء التى تتشابه يكفى أن يتفق الناس على أن يعطوا نفس الأسماء لنفس الأشياء ، أما العلوم الإلهية ، وتجيئه إلهاماً ، فلا توجد لها مصطلحات لأن ماعند الله ليس له مثيل . ومن جانب آخر لايحدث أبداً أن يظهر ماهو إلهى للشخص الواحد مرتين فى الصورة نفسها ، وبالتالى من المستحيل أن توجد تقنية لتوصيله . وفضلا عن ذلك يحدث للصوفية مايحدث للعشاق ، حين يبلغ بهم هياج الشهوة مبلغه ، فيتحدثون مثل المجانين ، بطريقة شاذة ومبالغ فيها ، لأنهم لا يستطيعون أن يتحكموا فى إرادتهم ، ولا أن يقيسوا المدى الذى تبلغه ألفاظهم .

فى ضوء ما فصلناه سابقاً نستطيع أن نفهم موقف ابن عربى ، وكان فى نطاق الإسلام شبيهاً بموقف لوليو بين المسيحيين : ذاك مثل هذا كان عدواً متطرفاً وصريحاً لآراء ابن رشد الفلسفية ، والمفكرين الأحرار ، والذين يرفضون فكرة الإلهام والنصوص الدينية ، والإيمان . ولكنه من جانب آخر كان يمضى بعيداً عن طريق الفقه الرسمى ، كما كان لوليو بعيداً عن الكنيسة الرسمية ، وكلاهما كان يحاول أن يصلح الناس ، وأن يهذب الأخلاق بوسائل تربوية غير حكومية .

---

(١) يقول ابن عربى في كتابه الفتوحات المكية ، الجزء ٣ ، ص ٥٢٣ ، انه ألف كتابا بعنوان: انشاء الجداول والدوائر ، صور « فيه العالم والحضرتين ممثلتين في اشكال العلم بها على صاحب الخيال ، اذ لاتخلو العقول من حكم الاوهام فيما تعلم أنه محال ، ومع هذا تتصوره ، ويغلب عليها حكم الوهم ، اذ لا ينضبط لها العلم بذلك الا بعد تصوره ، وحينئذ تضبطه القوة الحافظة وتحكم عليه القوة المذكرة » .

وكان الصوفية يريدون أن يبعثوا النهج القديم من حياة الإسلام، تلك الأيام التى تلت وفاة الرسول ، وكان لوليو يطمح أن يبعث نظام الأحبار من الرسل .

ورجال الدين الرسميون فى كلا الدينين عاملوهما بكل برود، واتهمهما دعاة العقل فى كلا الشعبين بالجنون ، وأنهما دعاة يحلمون بالمدن الفاضلة .

وكان الفقهاء يقولون عن المرابطين إنهم يتحدثون كسكارى ، لغتهم غير مفهومة ، وألفاظهم ذات معنى حين تؤخذ مفردة ، ولكنها فى جملة لاتفهم، ولاتعنى فى ظاهرها شيئاً . وعلى النقيض ، كان تلاميذهم ومريدوهم يجدون فى الكلمات التى لا يفهمها الآخرون معانى خفية ورائعة ، ويعودوا أن يقولوا عن معارضيهم إنهم ليسوا إلا رغوة أو دخاناً سوف يذهب بها الزمان .

يقول **كمال الدين** ، أحد كبار العلماء فى سورية : « ياالهم من جهلة !.. ياالهم من جهلة أولئك الذين يستنكرون بعض التعبيرات ، والكلمات التى يستخدمها **ابن عربى** فى كتاباته، إنهم يجهلون معانيها لأنهم لايملكون الذكاء الضرورى لفهمها ! . ليأتوا إلى ، سوف أحل لهم صعوباتها ، وأشرح لهم ماأراد ذلك الرجل العظيم أن يقول، وبهذه الطريقة تبدو لهم الحقيقة واضحة ، ويمكن أن نزول همومهم الخاطئة » .

وقد سئل الفقيه **زروق البرنوسى** عن رأيه فى محيى الدين بن عربى فقال: « هو فى رأيى أستاذ عالمى ، أراه شيخ العلماء ، أولئك الذين يعرفون كل شئ ، وفيما يتصل باستقامة عقيدته يجب أن أعترف بأن الآراء لا تتفق فى هذا . يراه بعضهم زنديقاً ، ويراه الآخرون ولياً ، ضربه الله مثلا للمسلمين » .

« ويسألون زروقا ، ومع أى الجانبين أنت ؟ فيجيب : فيما يبدو . القول بأنه زنديق مجازفة من جانبى ، والقول بأنه ولى مخاطرة ، وقد تؤدى إلى فضيحة بين الجهال . وهو مايجب أن يراه الإنسان الحكيم فى مثل هؤلاء الأشخاص كلهم ، كابن الفارض ، والششترى ، وابن أملة ، وابن سبعين ، والعفف

التلمسانى ، وغيرهم ، فى زهدهم حقائق تتصل بمذهب وحدة الوجود على التأكيد » .

وباختصار يمكن القول بأن رأى المسيحين فى أفكار رايموند لوليو ، لا يبعد كثيراً عن رأى المسلمين فى ابن عربى ، مع تفاوت بسيط لصالح الفيلسوف الميورقى .

حين نتأمل جيدا كل ما سبق تسترعى نظرنا المشابهات الكثيرة فى الحياة ، والنظام ، والمنهج ، والموقف ، بين هذين الصوفيين الإسبانيين ، كل منهما فى نطاق الدين الذى آمن به ، الإسلام أو المسيحية .

وفضلا عن هذه المشابهات ، وهى دلائل واضحة على علاقات مباشرة ، أو غير مباشرة ، بين محيى الدين بن عربى ورايموند لوليو ، استطعت أن أميز بعض الرموز ، وهى دليل واضح على وجود علاقة خاصة ، مباشرة وشخصية بين المذهبين ، وتؤكد — فيما أرى — أن لوليو يجب أن يكون قد انتفع إلى حد بعيد بكتب ابن عربى ، وهو ما يفسر لنا جانباً كبيراً من زهده ومن فلسفته .

بين أعمال لوليو المنظومة واحدة تحمل عنوان : « **أسماء الله المئة** » ، يقول المؤلف فى مقدمتها : « يقول المسلمون إن فى القرآن ٩٩ اسما ، وهى أسماء الله الحسنى ، ومن يعرف الاسم المئة يعرف كل الأشياء ، ولهذا ألفت هذا الكتاب : « أسماء الله المئة » ، وأعرفها كلها » . « وفى كل اسم من أسماء الله نظمنا عشرة أبيات من الشعر ، ويمكن أن ترتل فى الكنيسة على نغمات المزامير ، فلهذا السبب نظمناها ، لأن المسلمين يرتلون القرآن فى مساجدهم » . « وبما أن الله جعل للكلمات وللأحجار وللحشائش خاصية مميزة ، فكذلك فعل مع أسمائه ، ولهذا أنصح بأن تذكر أسماء الله المئة كل يوم ، وأن نحملها مكتوبة معنا » .

كان فى ذهن لوليو ، كما نرى وكما يصرح به هو نفسه ، عندما كتب

مؤلفه هذا ، أمثلة من التقوى الإسلامية يهدف إلى إدخالها فى المسيحية . وفضلا عن هذا ، نلحظ تأثير المذاهب الإسلامية فى أفكاره ، فهو يتحدث عن أسماء الله الحسنى كما لو كانت تعويذة لها فضل وتأثير ، وهى شئ إسلامى تماماً . ولست أعرف ، أنا على الأقل ، أن الفضائل الطبيعية أو المعجزة لأسماء الله الحسنى شائعة بين المسيحين ، كما لو كانت أحجاراً أوحشائش لها قوة سحرية خفية . وعلى العكس كان المسلمون على الدوام يرتلون أسماء الله الحسنى ويتذكرونها ويحملونها معهم مكتوبة ، كتعويذة تقيهم كل مكروه .

وإذا كان **لوليو** حين ذكر هذه الفضائل لأسماء الله الحسنى ، قد سار على خطى مؤلف مسلم ، وهو شىء واضح ، فمن المؤكد أن هذا المؤلف هو **محيى الدين بن عربى** ، لأن هذا كتب عدة مؤلفات شعرا ونثراً تتصل بأسماء الله الحسنى ، وفى الجزء الأخير من مؤلفه العظيم **الفتوحات المكية** توجد رسالة مطولة ، كتبها شعراً ونثراً عن « أسماء الله الحسنى » ، على الرغم من الجدل الذى قام حول ما إذا كانت هذه الأسماء التسعة والتسعون مذكورة فى القرآن أم لا .

وثمة ملمح خاص عن العلاقة الشخصية بين كلا المؤلفين يمكن أن نجدها فيما دعا إليه **لوليو** من أنه يجب إعادة تنظيم مجمع الكرادلة فى روما ، وذلك فى رسالته المسماة « بلانكيرنا » ، فجعل لكل كاردينال ، بما فى ذلك البابا ، اسما اشتقه من أبيات ترتيلة « المجد لله فى الأعالى » ، وجعل لكل منهم رسالة يؤديها فى الدنيا مشتقة من اسمه الذى اختاره له ، فهناك كاردينال يسمى « نحمدك » ، وآخر يسمى « نباركك » ، وهكذا .

وفى النظام الداخلى للصوفية ، كما رآه **ابن عربى** ، نجد أشخاصاً موكلين بالوعظ وتربية المسلمين وهم الأقطاب ، ولفظ قطب ومعناه المحور قريب من لفظ Cardo Cardinis اللاتينى ، ومعناه قلب ، ومنه اشتق

لفظ كاردينال . وكل قطب له لقب مقتبس لفظه من القرآن ، ومكلف بأن يعظ الناس بلقبه ، وأن يردده فى الخافقين ، وأن يمارس فى الوقت نفسه مهمة تتصل بما يعبر عنه فى هذا النص ، فهناك قطب لقبه « لا إله إلا الله » ، وثان « الله محمود » وثالث « الحمد لله على كل حال » ، وغيرها (١) .

اتفاق نادر وغريب : إن التجديد الذى أراد لوليو أن يدخله إصلاحاً فى المسيحية ، أطراه فى شكل شبيه له ، الصوفى المسلم ابن عربى .

ولكن الدليل القوى ، وفيما أرى يمثل البرهان الحاسم ، ويفوق كل ماأتينا عليه من مشابهات واتفاقات فيما سبق ، ماورد فى كتاب الصوفى لوليو : « الصديق والمحبوب » ، يقول ، على نحو مارأينا فى نصوص سابقة ذكرناها : إنه وجد الناس فى جانب من بلاد البربر يحكون هناك أن الأتقياء يرتلون الأناشيد عن الله والحب ، ويسيحون عبر الدنيا ، يعانون المسكنة وأعمالا أخرى كثيرة ، وأن هؤلاء الصوفية أو المرابطين تعودوا أن يرسلوا بعض الأمثال والحكم القصيرة التى يتطلبها أسلوبهم ، ويضيف لوليو : إنه ألف كتابه طبقاً لهذا المنهج .

ونجد أيضاً اتفاقاً آخر بالغ الغرابة ، وهو أن ابن عربى عَنْوَن كتابا زهدياً خالصاً له : « ترجمان الأشواق » ، وصنّفه كما يقول فى المقدمة منه ، وفى أمكنة أخرى من كتابه «الفتوحات المكية» ، بأنه مجموعة من شعر العشق ، تشبه مايقوله الحبيب فى محبوبه ، غير أن ألفاظه ذات معان رمزية ، وكل المفردات المطروقة فى الشعر العربى من : الأطلال ، وأريج الزهور ، والقمر ليلا ، والنجوم ،

---

(١) أشك في أن الصوفية ابتدعوا لفظ قطب ، ربما لم يصنعوا شيئا أكثر من تقليد التنظيم الطبقى العلنى في الكنيسة الكاثوليكية ، بطريقة خفية وغامضة ، لتعويض غيبة مثل هذا التنظيم في الاسلام ، واقترح لوليو فيما بعد ، متأثرا بالصوفية ، ان يبعث ما سبق للصوفية ان قلدوا فيه المسيحيين ، وبعد كل شيء فمن المعلوم أن التصوف الاسلامى وليد الافلوطونية الجديدة للمسيحية .

والبرق والرعد ، والصبا ، والروابى ، والحدائق ، والغابات ، والفتيات الكواعب والتماثيل الجميلة وغيرها ، لها معان خفية ، وأن الصور الغزلية ، والصفات الغرامية ، تشير إلى الله ، والعلوم الإلهية ، ولفهمها يجب التعمق فيها ، والغوص إلى أبعد أغوارها ، وليس الوقوف عند ظاهرها وحده . وقد كره بعض الفقهاء هذا الشكل من الشعر الصوفى ، وصد مهم أن تستخدم الأشعار الغزلية فى التوجه إلى الله ، والحديث عن الأشياء الإلهية . ولهذا وجد ابن عربى نفسه مضطراً إلى أن يؤلف كتاباً آخر أعطاه عنواناً : « ذخائر الأعلاق » ، وفيه عرض وشرح الغاية من كل لفظ أو تعبير او تصوير ، وهى تفسيرات مفيدة لمن يقرأونها ، فيما يرى . لقد كانت تراتيل الحب وقفا على العاكفين أوخدام الله ، وهذه الكلمات الحنون تجعل من الإثارة المعنوية عملا جميلا ومحبباً (١) .

وفضلا عن هذا فإن العقيدة التى يضمرها فيما يتصل بالحب الإلهى تفسر من بعيد مذهب وحدة الوجود ، الذى نلحظه فى صوفية لوليو. ويكرر ابن عربى فى أكثر من مكان من مؤلفاته مذهباً مشابها نتبينه من فقراته التالية : « إن الغاية التى يؤدى إليها الحب الروحى هى المطابقة ، بأن تصير ذات المحبوب نفس ذات المحب ، وأن تكون المطابقة متبادلة ، فتصير ذات المحب نفس ذات المحبوب كذلك». وهى فقرة تتفق تماماً مع مايعرضه لوليو فى بدء كتابه « الصديق والمحبوب». فهما يتفقان كلاهما فى الشكل ، وفى الخطوط العريضة للمعنى ، ويحملنى هذا على الاقتناع بأن لوليو فى مذهبه يتكأ على كثير من الأشياء عند محيى الدين بن عربى .

---

(١) إنى أستاذى العزيز فرانسيسكو تديرة يعود الفضل فى الحصول على بعض الفقرات والملاحظات عن مؤلفات محيى الدين بك عربى ، من كتابه « ترجمان الاشواق » ، وأخذها مباشرة من النسخ المخطوطة التى تحتفظ بها مكتبة الاسكوريال .

ربما كان من الأوفق طبعاً أن نجد كثيراً من جمل ابن عربى ، وفقرات من كتبه ، ترجمها لوليو ، ولكن الأمل فى أن نجد شيئاً شبيهاً بهذا لا يجب أن يستولى على مشاعرنا ، لأن لوليو لم يهمل ذكر المصادر فحسب ، ولكنه ترك ماتعوّد أن يفعله آخرون أحياناً ، مثل : رايموندومرتين ، وألبرتوماجنو ، وتوماس الأكوينى ، وغيرهم . لقد حذف هؤلاء الأسماء ، غير أنهم كانوا ينقلون فقرات الفلاسفة السابقين كاملة . وليس ثمة شك فى أن لوليو درس كتب الصوفية ، وأطلع على علمهم وتمثل مذهبهم ، ولكنه فيما بعد ، مع كل هذه المادة التى تعلمها ، شكل طريقته ، وعندما كتب لم ينسخ عن آخر ، وإنما قال ماعنده ، كما لو كان له شخصياً . كيف استطاع أن يعتقد أنه ملهم ، على حين وهو يعرض مذهبه لم يتوقف عن نسخ النصوص العربية ؟ . إن القول بأنه ملهم ، وأنه نقل النصوص العربية فى الوقت ذاته ، لا يتسع لها معبد لوليو الأخلاقى ، وإذا لم يذكر الأسماء ، ويحدد النصوص ، فلأنه كان يعتقد أنها جاءته إلهاماً .

باختصار ، كان من عادة لوليو ألا يذكر مصادره ، وألا يترجم ، وأعتقد أنه استخدم الوسيلة الوحيدة لكى يشير إلى انتماء طريقته الفلسفية ، بأن يقول إنه سار على خطى الصوفية ، وابن عربى من بينهم بالذات يفسر لنا أشياء كثيرة خاصة ، أصبحت من ملامح الفيلسوف الميورقى ، كالمبادىء الأساسية لمذهبه ، وسلوكه الخاص ، ورأيه العلمى ، ومنهجه التربوى ، وتقنيته ، وأخيراً صوفيته . وهو نفسه يعترف ، وذلك شىء نادر جداً ، بالتقليد الذى اتبعه فى « الصديق والمحبوب » ، وهو نقطة الانطلاق فى الصوفية المسيحية .

هذه الملاحظة الأخيرة كانت ، كما قلنا فى ما سبق ، الخيط الموصل للبحث الذى حملنا على أن نلمح آفاقاً جديدة لم يكن يحلم بها أحد ، وفضلا عن أنها تملأ فجوة جاءت حلا « للاستمرارية » فى تاريخ فلسفة مثل فلسفة لوليو ، كان لها أهميتها على امتداد مئات الأعوام فى نطاق المسيحية ، وقادتنا فى نهاية

المطاف إلى أن نهتم بأن نخرج إلى الضوء أفكار بعض علماء ما وراء الطبيعة المتعمقين من المسلمين الإسبان ، ولا يتحدثون عنهم فى أوربا غير القليل أو بالكاد ، ويحتفظون بأكثر من مفاجأة للباحثين . هكذا كان أصحاب وحدة الوجود الذين ولدوا فى أرض مرسية ، مذهبهم فيما وراء الطبيعة كان صداه فى العالم الإسلامى أعظم رنيناً من مذاهب فلاسفة آخرين مشهورين جداً بين المسيحيين ، مثل ابن رشد ، وابن باجة ، وابن طفيل .

وفى هذه المفاجأة لاأحتفظ لنفسى بأكثر من « مجرد سائح » يجىء فى الطليعة ، ولكى نحمل القضية إلى نهاية سعيدة لا أعتقد فى نفسى أننى مؤهل لذ لك بدرجة كافية ، وأدعها آملا وسعيداً وراغباً لصديقى الدكتور **ميجيل أسين بلاثيوس** ، والذى سوف يقوم بها خيراً منى ، فهو يملك الاجتهاد ، والصبر ، والحماسة العلمية ، وتكوينا فلسفيا أصيلا ، وقوة مثل هذه الروح ، وليست جامدة ولا متعصبة ، يمكن مع المرونة الضرورية أن تواصل ، بلا عنف ، اكتشاف التفكير المعقد ، والملتوى ، والدقيق ، والعميق ، لهؤلاء الصوفية المسلمين .

وبهذه الطريقة ، وفى نطاق حقلنا ، نحاول أن نكمل وصايا ونصائح بطل العلم الإسبانى الممتاز ، والذى أهدى إليه هذا المقال .